كتب قرأتها :

الأدب الشعبي اللبناني

للأســـتاذ حبيب الزحلاوى

يطيب للنفس فى بعض الأحايين أن تنفض ما عليها من أردية مستعارة لتنعم بساعة من وجودها النقى الأول ، كما يحلو للذهن أن ينحى عنه شواغله وينفلت من قيوده لينتبط ببرهة من هدوء تعود به إلى عهد البراءة الخالصة يوم كان خلياً من متاعب الحياة.

ألم تلتفت مرة إلى أنفسنا وقد لقيناها تعود من سبحات لا هى يقظات واعية ولا هى هجمات غافية نجد فى غضونها الراحة والهناءة ؟

ألم تر رجلا من ذوى العقول الراجحة والاتزان الصحيح يطمئن إلى صحبة من هو دونه بمراحل استجماما للذهنه وترفيهاً عن نفسه ؟

أليس الأدب الشعبي عوداً على بدء الفطرة للتعبير عن المشاعر والنزائع بلغة البداهة الساذجة ؟

لعلى بهذه المقدمة أستطيع أن أغرى القارىء بعودة ذهنية إلى خميلة من خمائل الطبيعة الفطرية نكشف بها عن ناحية من جمال أدب شعبي لشاعر لبناني من زحلة يدعى أميل مبارك قصر أغانيه على الضيعة .

للضيعة اللبنانية طابع خاص يختلف عن طوابع القرى فى أغلب الأقطار والأمصار ، كما أن للريف اللبنانى ميزة تميزه من بقية الأرياف ، فلا غرو إذا خصه شاعر بأغانيه ووقف على وصفه ديوانه « أغانى الضيعة »

يمتاز الأدب الشعبي اللبنانى بخلال طبيعية ومزايا اجتماعية ، وأوصاف محلية قل أن تتوافر لأدب شرقى سواه .

يمتاز بالحنين وإثارة الوجدان ، لأن أكثر من نصف أهالى لبنان يعيشون فى مهاجرهم النائية عن الوطن ، ولأن هاتيك المهاجر لم تقو ولن تقوى على أفلة اللبنانيين ومزجهم بها فى الروح والشعور والخلق .

ويمتاز أيضاً بالبقاء لسهولة حفظه وعذوبته فى الإنشـــاد الجماعى ، واشتراك المرأة فى تذوقه ، ولجمعه بين الوجدان والعاطفة ولطابعه الدال على كيانه اللبنانى الفريد ، وعلى الحرص على إبراز هذا الكيان فى المهجر .

ويمتاز أخيراً بالنقاء من شوائب اللهجات والتعبيرات المجاورة للحدود اللبنانية ، بمحافظته على المفردات العامية والاصطلاحات التى تتقارب قليلا ، ولا تتباعد كثيراً بين قرية وقرية سواء أكانت فى الجنوب أم فى الشمال ، بصوره المنقولة نقلا حسياً عن جمال طبيعي من صنع المجهول لجبال وأودية وينابيع وغدرات وأشجار وأثمار وأطيار ندر وجود ما يضارعها فى فتنتها الساحرة وجمالها الأخاذ فى أنحاء هذه الكرة الأرضية ، وفى رسم عادات أهل الضيعة ، وطبائعهم وسذاجتهم وبساطتهم فى حياتهم القريبة من البدائية .

مشتاق أرجع للضيعه ... مشتاق كتير
إتمشقلى بشى تينه ... وصيد عصافير
عنت ع بالى الضيعة ... ويا ما مشتاق
عشّى السلة بكوعى ... وحوّش جرجير

قد يجد غير اللبنانى بعض الصعوبة فى فهم الكلمات لارتباطها بحروف أو لادغامها فى حروف أخرى ، ولكن يسير من إعمال الفكر تدنو المعانى من الافهام ، لأن الكلمات ليست بدخيلة على اللغة ولا هى ببعيدة عن أصول آدابها .

نحن نرى أن البيت الأول واضح كل الوضوح لكل قارىء أما البيت الثانى فقد استعمل الشاعر كلمة « تمشق » بمعنى « تسلق » وفى البيت الثالث كلمة « ع بالى » المحذوفة منها بعض الحروف بمعنى « على بالى » .

مشتاق ارجع عالضيعه ... شوف رفاق
واسرح بمروج الخضرة ... وجو الناق[1]
واسمع دجاجات ستى ... عم بتقـــاق
ورافق جدى وبقراتو ... واحملوا النير

يجب أن نلاحظ أن أكثر أهالى لبنان يلفظون القاف بصحيح مخارجها ، بعكس الكثيرين من أهالى مصر والشام يلفظونها همزة ، أما أهالى حلب فيلفظونها « آف » مفخمة .

كنت صغير ، وصرت كبير ... رمت قطار المسكونى[2]
غمى عشت ، وعشت فقير ... وشفت كتير بزمانى

(١) أى التقى. (٢) أى جبت أقطار الدنيا .

وما عا بالى بيعن غـــير البيت الربانى

بهذه الكلمات الموجزة البسيطة يعبر الشاعر عن خلجات صدر كل لبنانى كان فى الأصل صغيراً يوم ترك قريته فى طلب الرزق ، ثم صار كبيراً وقد جاب أقطار الأرض ، وعاش فقيراً ثم غنياً ، ورأى الكثير من دهره ، ولم يبق ثمة من شيء يخطر بباله سوى البيت الذى نشأ فيه ، ودرج منه ، ليعود إليه ، ولو يدب إليه دبيباً .

عحلا[1] الضيعه والرزقات والراعى وصوت العنزات
وحلا خرير الشلالات تحت سلاح السنديانى[2]
يا هل ترى يرجع بعد يسكن بيت الربانى ؟

* * *

محلا الضيعة محـــلاها محـــلا مناخا وهواها
كيف ما بدّى أهواها يلاّ الهجـــر كفانى
راجع يا بيتى مشـــتاق بهواك وأنت بتهوانى

* * *

يقام حتى هذه الساعة ، أسواق للأدب الشعبى تعقد حلقاتها فى الساحات العمومية ، يؤمها الناس من الجنسين من كل حدب وصوب يستمعون مباراة الزجالين ويشتركون معهم فى الهزيج والإنشاد . وتمتاز هذه الاجتماعات العامة بميزة الارتجال التى لا أحدها كثيراً لاضطرار مرتجليها إلى الارتكان على الذكاء وحده دون الروية والتبصر . وقد حدثونا عن إحدى هذه الحلقات وقد حضرها الدكتور طه حسين بك فقال الزجال مرتجلا

وحياتك يا طه حسين مِتّى عاوز التِّنْتين
عين الواحـدة تكفينى خدلك عين وخلى عين

أما الزجال أميل مبارك صاحب ديوان « أغانى الضيعة » فهو نسيج وحده ، لا يحتذى سواه من الزجالين ، بل ينظم القصيدة فى شهر أو فى شهور ، وما يزال بها نحتا وصقلا ، تارة فى تنحية الكلمات الذاهبة فى الأدب مذهب المثل ، وتارة فى استبعاد الكلمات العامية التى صارت شبه منسية أو هى فى حكم المندثرة الحوشية ، حتى يبلغ الغاية من الرضى عنها . ويكفيه أن ينشدها مرة واحدة حتى تتلقفها الآذان ، وتتداولها ألسنة الناس إنشاداً ، وينقلها البريد إلى كل صوب يأوى إليه لبنانى فى بقاع الأرض

(١) أى ما أحلا . (٢) أى ما أحلى

اشتقت لزقزقة العصفور ولريحة هـــوا بلادى
بدى أرجع لمّ زهور عن حفة نهر الوادى

* * *

ربينا سنين وربينا شهور بالوادى بين الصـــخور
ربينا وكان يجى العصفور يشاركنا عَ الزوادى

كم لمشاركة العصفور على الزاد من سحر روحى جذاب قد لا يستعذبه سوى أليف الضيعة والمرهف الحس !

* * *

لا يشغل الغزل حيزاً واسعاً فى ديوان « أغانى الضيعة » المتواضع ، فكأن الحنين إلى المكان ألهى ناظمه عن المكان ، وكأن حرصه على ذكر الدالية بعناقيدها ، والتينة بما على فروعها من أعشاش ، والعليق المتشابك عند الغدير ، وتشوقه إلى قطف « كبوشه » أى عناقيده المزة الطعم ، والصفصافة المنحنية الأغصان ، والالتفاتات الكثيرة إلى ما جل ودق فى طبيعة أشياء وأشخاص الضيعة من جرود وسهول وجبال إلى البقرة والعنزة والدجاجة ، أنساه عنصر الحياة الأول ، عنصر المرأة ، وهى سر الغريزة الحقيق ، لا نسياناً كلياً ، ولكنه توسل به توسلا عرضياً فجاء وكأنه يستغنى بالتلميح عن التصريح .

لما شافتنى تنهدت بدون حَكِى ورغرغت بالدمع قصدا تشتكى
واحمر ورد خدودها وبكيت خجل
ومن عصّتى ما قدرت قلها شـــو بكى

لتلاحظ أن النظرة هى التى عطلت لغة الكلام ، وأن الخجل هو الذى أحنى الرأس ، وأن الغصة اشتركت مع النظرة فى تعطيل اللسان لخفق القلب .

ضميت[1] واقف وهى كمان وقفت معى
رحنـــا ما قلنا رْجاع ولا ارجعى
وتينا بها الوقت كنا بلا وعى
عرفنا شو حكيو قلوبنا من التكتكى

فهذه الصورة على ما فيها من بساطة التصوير الرائع لاضطرابات النفس وخلجات الوجدان ونبضات الغرائز تماثل الصورة التالية وهى أكثر إمعاناً فى سذاجتها وأدق فى براعتها .

(١) ضميت وتنيت : بمعنى بقيت

قديش[1] كنا نروح ع دْروب الهوا
وكبوش[2] شنّا محبي[3] نقطف سوى
وكل ما حكينا ينغّزنا الهوى قديش كنا نخاف لمح خيالنا
قديش كنا نروح نلعب بالحقول ونقرفط الزعرور ونفز الجلول
وقديش كان بَيّك لبيّ يقول بعدو ولدْ لا تضربو كرما لنا

كم من مرة ذهبنا إلى الحقول وتخطينا الحواجز لنقرط الزعرور ؟ وكم كان يقول أبوك لأبي دع ولدك إكراماً لي ولا تضربه لأنه لم يدرك بعد .

لناظم ديوان « أغاني الضيعة » ميول بينة إلى تسجيل كل ما يحيط بحياة القرية اللبنانية من ظواهر جوية وتغييرات مردها إلى تبدل فصول السنة وهي جد مضبوطة في ربوعه يعرفها قطانه باليوم الواحد يعدون لها العدة ، ويرى طوالع الشتاء في فصل الخريف ...

تجمعوا النحلات ورجعوا للقفير ... ...
والشمس بردوا حبالها ، وناص القمر
والليْ شحت ما بقى لها خرير

بردت أشعة الشمس وقل ضوء القمر ، وشحت المياه وقلت ، وعاد النحل إلى قفاره لأن البرية تتعرى في الخريف .

ويستقبل الشتاء بابتسامة المتأهب :

محلا الشتا ومحلا البرد لو عندك مونى[4] تكفاك
وندف الثلج وطق الشرد والقمدة حدّ الشباك
ومحلا الهوا بقلب الغاب ومحلا الكبوة[5] حد النار
والرعد وطرق الزراب

وهو يتشوق إلى نسيم الصيف من خلال زهور الحقل في فصل الربيع .

رجع عالعش العصفور عا لحقلّه طار الفرفور
المرجة فرشت أرضا زهور تانيّم قمر نيسان

* * *

ويتشوف الندى بنيسان عامدّى السهل وطولو بتحسّب فوق الريحان الدنيا مشتّايى لولو

على مدى السهل ، ترى الندى فوق الريحان في شهر نيسان كأنه اللؤلؤ أمطرته السماء .

* * *

يعلم الشاعر مبارك أن عدد القاطنين جبال لبنان اليوم يساوى عدد المهاجرين المتناثرين في أميركا الجنوبية والشمالية وفي المستعمرات البريطانية وسواها ، ويعلم أيضا أن لا سبيل ألبتة إلى عودتهم إلى قراهم إلا بالتحبيب والتشويق والتذكير ، ولم يتوسل بالموازنة بين مدن يسكنونها وهي عامرة ، وبين مساقط رؤوسهم وهي شبه مقفرة ، ولا بالمقارنة بين عواصم نزلوا بها وبين مباءات طفولتهم ومعقد ذكرياتهم ، بل ابتكر طريقة حوار وسؤال بين لبناني مقيم وبين لبناني مهاجر :

بتسألني شو في عندك بالضيعة ، تنّك مهم[1]
عندي أحسن ما عندك عندي بَسْطْ وعندك هم

* * *

عنـدي البيت الرباني والمعبور ودروب الكروم
وعندي قدحة وصوّانه والضبوه وتنتنات الغرم

عندي البيت الذي ربيت فيه ، وعندي الطريق الموصل إلى كروم العنب والتين ، وعندي أيضا عدة التدخين عامرة بالتبغ وقداحة الشرارة .

في عندي القمده بكّير تحت صنوبر ضيعتنا
وترويقه قُرّه وجرجير بتسوى العيشه وغربتنا

عندي أن الجلوس في الصبح الباكر تحت ظلال الصنوبر وتناول طعام الفطور من الجرجير والقرة وهي من فصيلة الجرجير إلا أنها حريفة يساوى حياة بأكلها نقضيها في الاغتراب .

يا ما عبينا السلة تين أسود من تينتنا
يا ما لعبنا عالتله نحنا وبنات جارتنا

كم ملأنا السلة من التين ، وكم لعبنا على الربوة مع البنات

ويعود أيضا فينطق اللبناني المهاجر فيصور خلجات صدره وأمنيات نفسه ويقول :

بعد بيفتح درب البحر ولبنان بشوفلو صوره
نحمين برجع للرزقات ويعيش عيشه مستوره

---

(١) قديش بمعنى كم الاستفهامية أي قدر أي شيء
(٢) الكبوش هي عناقيد ملبق
(٣) شنا محبي أي بئر عنبها كالمحبوب
(٤) أي مؤونة الشتاء
(٥) الكبوة : النوم المتقطع المتهدم

(١) أي أنت رجل ذو أهمية